بلاغة العرب والافرنج

لحضرة الكاتب المجيد خليل افندي ثابت

عثرت في مقتطف يناير على رسالة لحضرة الشاعر المجيد احمد افندي كامل قابل فيها بين بلاغة الافرنج وبلاغة العرب مستنداً الى امثلة وشواهد منها في الافرنجية معرب قصائد ومنثورات لكبلنغ وهيكو وفي العربية مقتطفات من منثور سماحة السيد البكري وابيات لبعض شعراء العرب

ولقد آنست من حضرة الكاتب تحاملاً على الافرنج رددته الى غيرة حضرته على آداب اللغة العربية غيرة تحمد منهُ والى قلة علم باللغات الافرنجية وآدابها فهل يأذن لي حضرة الاديب ان انقد كلامهُ مع اعترافي بالعجز والقصور

اللغة العربية في عرف علماء الفيلولوجيا احدى اللغات السامية ولغات اهل اوروبا فروع اللغة الآرية . وان من لهُ المامًا باصول الفيلولوجيا يعلم ما بين هذين الاصلين اعني السامي والآري من التباين والبعد بحيث يصعب ردهما الى اصل واحد الامر الذي يسعى اليهِ المشتغلون بتوحيد اصول اللغات

وزد على ذلك ان طرق التعبير عند الفرنجة غيرها عند العرب وابسط ما يستشهد بهِ في هذا المقام اننا نحن المشارقة نقيس الابعاد بالساعات والايام ويقيسها الغربيون بالاميال والامتار وان كاتبًا اميركيًا بعيد الشهرة والصيت (مارك توابن) جاء بلاد الشرق منذ عهد ليس ببعيد فلما وقف على كيفية قياس الابعاد هذا اغرب في الضحك وسأل مستغربًا ما اذا كان المشارقة يقيسون طول قاماتهم وثيابهم بالوقت كأن يقولوا طول فلان اربع ثوانٍ وثخنهُ ثانية ونصف ثانية او ان طول ثوبهِ كذا ثوانٍ وعرضهُ كذا اجزاء من الثانية

وهذا شاهد بسيط على ان هنالك من التعابير في اللغات السامية والآرية ما لا يستطاع نقلهُ من الواحدة الى الاخرى لما تقدم من تباين اوضاع هذه اللغات واختلاف تصاريف الافعال فيها فللعرب صيغة واحدة للماضي مثلاً وللفرنسيين خمس صيغ وللانكليز اربع صيغ وقس عليهِ

وقد الف العرب عادات ومناظر ووُجدوا في احوال تختلف عن احوال الفرنجة فكانت النتيجة اختلافًا في الاذواق والآراء احدث هذا الفرق في اشعار الفريقين وكتاباتهم فما يعدُّ بليغًا عند العرب قد لا يحسب كذلك عند الافرنج ولو نقلنا الى الانكليزية هذا البيت

خطرات النسيم تجرح خدّيه ووسن الحرير يدمي بنانه

لوضع الانكليز اصابعهم في آذانهم حذر سماعهم اياهُ ثانية مع ان في البيت من المحاسن ما يطرب لهُ كل عربي . ولو نقلنا الى اللغات الافرنجية

قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزلِ بسقط اللوى بين الدخول فحومل

لضحك الاوربيون منهُ ولم يستطيعوا تفهم معزاهُ مع ان البيت مطلع اشهر قصيدة لاشهر شاعر عربي وقد استغرق وصف محاسنهِ صفحات كثيرة من كتب الشراح واهل الادب

ولا يستطاع تبديل هذ الذوق الأَ بتربيتهِ وتهذيبهِ فترى المستشرقين من كتبة الاوربيين وشعرائهم يلذون لما يجدونهُ في اشعارنا وكتاباتنا من البلاغة والفصاحة وكذلك يطرب متأدبونا والمتخرجون منا في مدارس الفرنجة لدى مطالعتهم كتب القوم ووقوفهم على استعاراتهم وتشابيههم وما ذلك الاَّ لان كلاً من الفريقين نال ما نالهُ بالدرس وطول المزاولة حتى الف ما عند الفريق الآخر من الخيالات وطرق التعبير

ومما يزيدني ثقة بصحة هذا القول اعتبار الانكليز التوراة كابلغ ما خطهُ البشر مع ان لغة التوراة الاصلية العبرانية وهي من اللغات السامية وانما هم ألفوا قراءتها وتمثلوا الجبال والوهاد وحاسيات الحزن والفرح المدرجة فيها والوصف الذي وصفهُ كتبتها الى آخر ما يلقاهُ المرء في اسفار التوراة من شعر ونثر

ولما كان اللفظ ثوب المعنى يحسنهُ بحسنهِ ويقبحهُ بقبحهِ نقصت بهجة الاشعار الافرنجية لدى تعريبها وذبلت نضرة الاشعار العربية لدى نقلها الى لغات الافرنج . هذا ديوان البهاء زهير وهو آية في الرقة واللطف نقل الى الانكليزية والناقل شاعر انكليزي يعرف العربية وقد استعفهُ شاعر عربي بليغ يعرف الانكليزية فجاءت الترجمة باردة ثقيلة مع التزام الناقلين ضبط المعنى وكون الترجمة الانكليزية شعراً

ويحتشى عين القول على شكسبير وهو امام الشعراء فقد بلغ من ميل الفرنجة الى كتابات هذا الشاعر ان الفرنسي او الالماني قد يجيد نفسهُ ويتعلم الانكليزية على ما في ذلك من وعورة المسالك لكي يقف على اشعار شكسبير في لغتها الاصلية مع ان اشعار الرجل مترجمة الى سائر لغات اوربا لكن العارفين يعلمون ان الترجمة تفسد كثيراً من جمال الشعر ورونقهِ هذا اذا ترجم الى لغة قريبة الاخرى فما قولك لو نقلت اشعار شكسبير الى العربية وهي تبعد عن لغات اوربا بعداً شاسعاً

وقد ابى مترجم رواية التعساء (الفكتور هيكو) الى الانكليزية ان ينقل فصلين منها

الى تلك اللغة معترفاً بعجزه فمن لنا بمن ينقل هذين الفصلين الى العربية وهو يعلم ان طرق التعبير في الافرنسية تماثل طرقه في الانكليزية مماثلة كبيرة

ولا يراد بقولي هذا ان تعريب المقتطف لاشعار كبلنغ وتعريب لسان العرب لاشعار هيكو ناقصان وانما جلّ ما اقوله في هذا الشأن اني قرأت الاصلين في لغتيهما وقرأت التعريب وأراني ألذّ بالاصل اضعاف لذتي بمعربه واللوم في ذلك غير عائد الى المعربين وانما ما تقدم من الاسباب هو مرجع الفرق بين الاصل ومعربه

وقد الف الافرنج من المناظر والخيالات والتشابيه ما لم نألفهُ نحن والعكس بالعكس فلو وقفت في ساحات لندن وباريس ورفعت عقيرتك وتغنيت بازقتين ووخد الابل وريح الصبا والمسك والعنبر وعقرب الصدغ وانشدتهم

وما احضرَ ذاك الخال نبّاً وانما لكثرة ما شقت عليهِ المرائرُ

لاصاب السامعين ما اصاب حضرة الاديب من انكارهِ على الشاعر الفرنسي رقص السحابة حول القمر، لكن الشرقي يرتاح الى جميع هذه فهو الذوق لا جدال فيهِ والعادة ليس لمن ينكر تأثيرها

ويستحيل على العربي معرفة الاسباب التي تحبب اشعار كبلنغ ومن شاكلهُ الى قومهم ما لم يكن عارفاً بلغة القوم وتاريخهم وتقاليدهم فقد نظم الرجل قصيدة اكراماً للجنرال السر افلن وود بعد حربهِ مع السودانيين عنوانها (فزي وزي) (Fuzzy Wuzzy) وصف فيها شجاعة السودانيين وما فعلوهُ بالجيش البريطاني ونظر بين افعالهم وافعال غيرهم من اهل الهند والترنسفال ممن حارب البريطانيين كل ذلك بالكلام العادي الذي يتداولهُ عامة الناس والطبقة الدنيا منهم فجاءت قصيدة مطربة بليغة في بابها وصنع لها احد الموسيقيين صوتاً فتغنى بها الانكليز والاميركان في نواديهم واعجبوا بمحاسنها شديداً ورددوا صداها في محافلهم ولو عربت القصيدة (مع استحالة الامر) بنغمتها لنفر منها الشرقيون وحكموا بان واضعها ذو جنّة ولو كلف شاعر عربي لوضع مثلها في الباب نفسهِ لاتى الموطن عن سبيل آخر وانما كلا الشاعرين يضرب الى غاية واحدة هي وصف شجاعة القوم بما يحدث تأثيراً في نفوس السامعين بتشابيه جديدة او مألوفة كأن يذكر العربي منهما مواقع عبس وذي قار ويعدد الانكليزي حروب قومهِ مع الهنود والافريقيين كما فعل كبلنغ وتكون النتيجة ان العرب يستقبحون ما نظمهُ الانكليزي ويستخف الافرنج بما نظمهُ العربي اللهمّ الاّ الراسخين من الفريقين في اللغتين

ثم ان هنالك عيباً في انشاء المحدثين من الكتاب لا اراهم يحبون التملص منهُ وهو ذلك

السجع يلتزمونهُ في كتاباتهم وهو من مضعفات التركيب بما يلتزمهُ الكاتب من تقييد نفسهِ بلفظٍ قد يفيد المعنى المطلوب وقد لا يفيدهُ. ثم ان الرسالة اذا جاءت كلها مسجعة باتت على وتيرة واحدة مما يدفع القارىء الى الملل. ويستحب من السجع ما يأتي عفو القريحة متين الرصف او ان يكون هنالك نكتة كقول سماحة السيد "انظر الى الاستكانة بعد الصولة وقبر في جوفهِ دولة" وقوله "نابوليون وما نابوليون اسم ترك دويًّا في كل قطر. كانما تداول سمع المرء انملهُ العشر" والاَّ جاء باردًا ثقيلاً كما هو الواقع في كثير من السجع حتى في مقامات الحريري ومن اشبههُ من فحول الكتاب

وفي رسالة حضرة الاديب شاهدان هما معرَّب وصف ميلاد نابوليون الثاني ورسالة سماحة السيد البكري في وصف مولود. ولسماحة السيد المقدرة في صناعة الانشاء ولهُ آيات في البلاغة احلتهُ محلاً رفيعًا بين كتاب العصر حتى بات وهو المشهود لهُ بانهُ راعي تلمات الفضل وانما يفضل معرَّب وصف ميلاد نابوليون الثاني رسالتهُ لا من حيث رصف الكلام فهو لا ينازعهُ في ذلك منازع ولكنها التخيلات افضلها في الاولى عليها في الثانية اذ يتمثل لي صورة في الواحدة منهما واعدم تلك الصورة في الاخرى فلا يخرج وصف سماحة السيد عن تشبيه المولود بالقمر والاسد والزهرة والدرة الى آخر ما ورد في الرسالة مما لا يؤلف صورة يرتاح اليها الخيال

ولا اخال العارف باللغتين الفرنسية والعربية يفضل رسالة السيد من حيث رصف الفاظها وتنميقها على قصيدة فكتور هيكو في الاصل الفرنسي اذ لا تخلو رسالة السيد من الفاظٍ ينفر منها السمع كالعكرمة والقعقاع والعذيق مما لا اثر لهُ في قصيدة هيكو

وفي قصيدة هيكو من سموّ التخيل ما لم يبقِ بعدهُ مجالاً لشاعر فهي تصف تمامًا عظمة نابوليون ومكانهُ من اوروبا ومن الامة الفرنسية لدن خضعت لهيبتهِ امم الارض ثم يستطرد الى وصف حاسياتهِ بعد الذي اوتيهِ من رفعة الشان وضخامة الملك ويتلو ذلك مقابلة ووصف لما تصير اليهِ حالة المرء مهما ارتفع شانهُ وعظم امرهُ وفيها من دقة التعبير وسموّ المدارك ما هو ظاهر بحيث لا يستطاع ردهُ. كل ذلك بالعبارات التي تحدث في النفس الاثر المراد فان من يقرأ القصيدة يتمثل لعينيهِ مجمع الامم الحافل وذلك السلطان محفوفًا بالعظمة والمجد. وما ابدع انتقال الشاعر الى قولهِ ثم كلمهُ صوت الشاعر من وحي الغيب. فقد يستطيع الكاتب الاتيان بمثلهِ لا يزيد عليهِ حسنًا وكم من كاتب تزل قدماه دون بلوغهِ هذه الدرجة من البلاغة

واما قول حضرة الاديب ان رسالة السيد في معنى قصيدة هيكو فدليل على انهُ لم يحسن

تفهم كلام هذا الاخير اذ لا مماثلة بين الرسالتين فالاولى منهما موضوعيا نابليون وساعتان احداهما في معظم السؤدد والاخرى في مقام الهوان والثانية منهما تقتصر على ما يسرّ والدًا ولد لهُ مولود فكتب اليهِ كاتب بليغ يعظم قدرهُ وقدر المولود ويهنّي الاخير منهما عيشًا هنيئًا ورفعة لما يعهدهُ في آبائهِ واجدادهِ من طيب الخلال والنزوع الى تطلاب المجد الخ

ولنعد الى ما خرجنا عنهُ من البحث . خذ مثلاً بيت المتنبي المشهور في الجزء الذي اختارهُ حضرة الاديب مثالاً والبيت

واذا لم يكن من الموت بدٌّ فمن العجز ان تموت جبانًا

وانثر هذا البيت او انقلهُ الى احدى اللغات الاوربية فانك تستطيع الافصاح عن معناهُ تامًا وانما ينقصك شيء تشعر بهِ في الحالين وذلك النقص مرجعهُ انتقاء الالفاظ العربية في البيت ورصفها معًا على نمط يستشعر معهُ المرء بالموسيقى الشعرية (اذا صحّت هذه التسمية) الامر الذي لا يستطاع في النثر او في احدى اللغات الافرنجية في هذا الشاهد وفي كثير من نحوهِ. وقد فطن كتاب الانكليز لهذا الامر بعينهِ فافردوا لهُ فصولاً في كتب البيان وسموهُ (harmony) اي المناسبة بين اللفظ والمعنى سواء كان ذلك في اللفظ الواحد او في ما تركب من غير لفظ واحد. ولم يفتح لهُ العرب مجالاً في كتبهم الاَّ في ما نصَّ عليهِ متأدبوهم من شروط الفصاحة في اللفظ الواحد او الالفاظ الكثيرة مما تراهُ في الفصل الاول من كل كتاب بيان

وشبيه بالفرق بين بلاغة العرب والافرنجة ما بين موسيقاهما من التباين فلا يطرب الافرنجي سوى موسيقى الافرنج ولا يرتاح المصري الاَّ الى سماع صوت عربي ومن العبث البحث عن ايهما افضل هذا الغناء او ذاك ما زالت الافضلية مرجعها في ذوق السامع لا في الموسيقى نفسها والاَّ فاذا حكمنا العارفين من الشرقيين بالموسيقى العربية والافرنجية وبلاغة العرب والافرنج فضلوا موسيقى الافرنج وبلاغتهم بالاجماع الاَّ في مواطن يشارك فيها العرب الافرنج او يفوقونهم بلاغة وطيب موسيقى

ولنا نحن العرب من كنوز البلاغة ما يعترف بفضلهِ الافرنج انفسهم وانما ابى بعض شبابنا والمتأدبين منا الاَّ ان يزدروا هذه اللغة وينقطعوا الى اللغات الاجنبية زعمًا منهم ان اللغة العربية خلوٌّ من المحاسن الشعرية وليس فيها من المعاني ما يصح الوقوف عليهِ وهو تفرنج فيهِ كثير من الافراط وخير الامور ان يجمع المرء بين ما لذَّ وطاب من مقول الفريقين لا ينقطع لواحد منهما

واني استميح حضرة الاديب عذرًا وعفوًا فقد نظرت في المسألة كمن هو عارف ميل مناظرهِ الى حرية القول والبحث ويشهد الله اني لا اقصد الغضّ من شأن هذه اللغة التي اخاف ان

يكون قد قضي عليها بالفناء فانا اعلق الخاس بها حبًّا على ضعفهِ في القريحة وانما تشط اللغة من عقال الضعف والسقم بهمة ادباء نظيرهِ وتنشيط بلغاء لهم القدح المعلى كسماحة السيد البكري وابحاث يتبين معها ما تحتويهِ هذه اللغة من المحاسن وما يجب على ادبائها من العمل لحفظها سالمة من الفساد ولنموها وتقدمها .

ولعل هذا البحث يدفع بعض ادبائنا الى تعريب شيء من بليغ ما كتب الافرنج كاسيًا حلة عربية فيبتهج لنا ما عند اخواننا الفرنجة من معجزات البلاغة والانشاء

ذات الاجراس وملك الحيات

للاستاذ هارد شار جوردان رئيس مدرسة لالند ستانفرد الجامعة

من ضمةٍ وجرأة وخيلا وكرب من غير احصاء ولا
ولعنة من سالف الدهر على كل الافاعي تركتها مثلا
تسعى على الارض وتأكل التراب
ومن لسان يحرق العشب ومن تمتمٍ يخشى لظاهُ المستبن
صفاتكَ اللاتي بها انت قين يا افعوان الشرّ مَن منكَ أمن
فقد نجا من ميتة فيها العذاب

مترجمة من ابيات لبرت هرت

ذات الاجراس حيَّة رقشاء نضناضة حرشاء . وطنها كليفورنيا جبالها ووهادها وسهولها ونجادها . اوت الى جحر تحت صخر صلد اسمه فنامت فيهِ فصل الشتاء كانهُ ليلة ليلاء . حتى اذا نزلت الشمس برج الحمل . وحلَّت عقد الصقيع عن السهل والجبل . خرجت من خباها وقد اضناها البرد والجوع تطلب الدفء في عين الشمس وتترصَّد فريسة تسدُّ بها الرمق . وكان الماء يترقرق عن يمينها وشمالها تثصبَّب في الوهاد والرياح تعبث بابر الصنوبر فتتقلقل كازلام ياسر . والطيور تصيح بنغم الحب غير خائفة سطوة كاسر . كل ذلك وذات الاجراس عدوُّ غافلة لا تهتم الا بما بها من البرد والعناء ولا تحسب ان احدًا ينظر اليها نظر الحب والولاء . لا سيما وانها كانت من اخبث الافاعي واقبحهنَّ منظرًا برأس مصفح كتابوت الميت وذنب معقَّد كذنب الضب . حتى اذا فغرت فاها وابرزت نابيها واغمضت عينيها لتعلم ما بقي فيها القوة على الشر والمقدرة على الفتك زادت قبحًا على قبح وهولاً على هول